لحميد لحميداني من خلال كتابه "النقد الروائي و الإيديولوجيا"

من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي"

أ.كريمة بوكرش

-جامعة الجلفة-

" إن مطالبة الروائي بتجديد تصوراته المستقبلية تعتبر دفعاً صريحاً له بأن يتخذ موقفاً إيديولوجياً مباشراً. ومثل هذا الموقف المباشر سيكون على حساب فنية الرواية."

تسعى هذه المداخلة إلى إلقاء الضوء على سوسيولوجيا الرواية من خلال منظور الدكتور "حميد لحمداني" في كتابه " النقد الروائي و الإيديولوجيا: من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي".

فمن المعلوم أن المشروع النقدي للدكتور "حميد لحمداني" و بخاصة في كتابه المذكور، تعتبر نقدا للنقد في مسار الدراسة النقدية لمؤلفه، و هذا ما دفعنا بالاستعانة بالمنهج الوصفي لمحاولة تحديد المكانة و القيمة المعرفية لسوسيولوجيا الرواية داخل التشكيلة النقدية من خلاله.

و تنطلق هذه الدراسة من مجموعة من العناصر هي:

- الإيديولوجيا و الرواية: و فيه تعريف بالإيديولوجيا و دراسة لها في الرواية بين باختين و غولدمان.
- سوسيولوجيا النص الروائي عند الغرب: عن سوسيولوجيا النص الروائي لدى باختين و بيير زيما.
- سوسيولوجيا النص الروائي عند العرب: و فيه دراسة لأنماط التحليل السوسيولوجي للرواية، و هي: النمط السياسي الإيديولوجي، و النمط الموضوعي، و النمط المتبني لمفهوم الرؤية.
- منهج حميد لحميداني في الدراسة التطبيقية.

Mokarabat

سوسيولوجيا الرواية (نظرة عامة):

يرى الناقد عبد النور إدريس* أن النقد السوسيولوجي للرواية مرتبط بمجموعة من الملاحظات تقوم على أن الأدب يقارب المجتمع والثقافة السائدة فيه. و أنه وسيلة إعلامية مرتبطة بالرأي العام من حيث تأثيره في القيم والاتجاهات العامة في سلوك الأفراد والجماعات.

كما أنه وسيلة للضبط الاجتماعي داخل المجتمع.

فالإبداع الأدبي يمثل حقلا فكريا للتفاعل الأيديولوجي، و للممارسات التطبيقية في المجتمع وقد اعتبر جورج لوكاتش"أن عملية الإنتاج الأدبي والأيديولوجي هما جزء لا يتجزأ من العملية الاجتماعية العامة" (1).

و يتساءل لوكاتش عن أي حد يشكل العالم الدلالي والسردي للرواية واقعة اجتماعية؟

أما بيير زيما فهو يضيف سؤالا آخر لا يقل أهمية من الأول يقول:"إلى أي مستوى يمكن للنص الروائي أن يرتبط بالبنى الاجتماعية اللغوية لعصر ما ؟ " (2).

إن الفرضية الأساسية التي قام عليها النقد السوسيولوجي قد حددها جاك دوبوا J.Dubois في التعامل مع الأدب باعتباره نظاما اجتماعيا Institution Social ، تتلاقى مع نظرية لوسيان غولدمان الذي حاول إقامة توازن بين الذاتي والموضوعي في النظر إلى الواقعة الأدبية، حيث يرى أن هناك تجاوبا بين رؤية الأديب أو فلسفته في الحياة داخل بناء له خصوصيته من حيث البناء الأخيولي لعوالمه وبين الوعي الجماعي يقول،" فمعظم أعمال سوسيولوجيا الأدب في الحقيقة تقيم علاقة بين أهم المؤلفات الأدبية والوعي الجماعي لهذه الجماعة الاجتماعية أو تلك التي ولدت هذه المؤلفات داخلها" (3)

و يواصل عبد النور إدريس شرحه لهذا الموضوع بقوله أن مفهوم النقد السوسيولوجي مرتبط بالرواية دون غيرها على اعتبارها من أكثر الأجناس الأدبية اهتماما برصد تحركات الإنسان داخل المجتمع وفي علاقته بأفراده " فالرواية هي الشكل الذي به يخاطب مجتمع ما نفسه ، وهي الطريقة التي يحيا بها الفرد ليكون

Mokarabat

مقبولا في مجتمعه .ويمكن أن يكون النقد السوسيولوجي كما عرفه ريمون ماهيو" بكونه ممارسة لقراءة ذات طابع خصوصي إزاء النص الأدبي ، تحترم استقلاليته باعتباره شكلا جماليا" (4).

و من المهم جدا أن تتمتع الرواية بجميع المستويات : الطبيعي منها والواقعي والتوهمي والخيالي والأخلاقي والنفسي وما دون النفسي والشاعري والجنسي والسياسي والتجريبي " فيليب سولرز Ph. Solerz ولعل من ضمن الاستساغات النظرية فيما يتعلق بالمجتمع هي التي تعطي الشرعية التطبيقية لهذا النقد من حيث أن النسق الأدبي هو بمعنى من المعاني صياغة فنية سوسيولوجية للعلاقات الاجتماعية المتفاعلة ليست لها علاقة شكلية فقط بالظواهر الاجتماعية بل تتجاوز هذا المعطى نحو التفاعل مع المضامين المعرفية.

فمقاربات كارل ماركس K. Marx تدرج الإبداع الأدبي في صيرورة المجتمع مع الأخذ في تفسير هذه العلاقة الجدلية الصراع الطبقي والبناء التحتي الاقتصادي حيث الصلة بين المجتمع والمعرفة وبالتالي الأيديولوجية ، جد قوية مما يعطي للإرث الأيديولوجي بعدا مؤثرا في المعرفة والفن والثقافة والأدب.

أما مقاربات كل من جورج زيمل G.Simmel وماكس فيبر M.Weber وكارل مانهايم K.Manheim ، فقد تنوعت ما بين تصنيفيه جورج زيمل للعلاقات والعمليات الاجتماعية في المجتمع والعمل الدرامي وما بين تصنيفية فيبر للأنساقية والقيمية في الإبداعات الأدبية إلى أنماط مثالية Idéal Types.

أما مدرسة فرانكفورت عبر أعمال أدورنو W.Adorno وهوركايمر Horkeimer وولتر بنيامين W.Benjamin فقد ساهمت في تطور النقد السوسيولوجي بعد الحرب العالمية الثانية .

وعملت المدرسة السوسيولوجية مع روادها ساكولين P.Sakulin ورازومينيك I.Razuminik و فنجروف S.Vengerov على الاهتمام بالعلاقات الاجتماعية

Mokarabat

المتعددة للأدب وعلى صياغة عددا من المباحث الفرعية في علـــم اجتمـــاع الأدب مثل علم اجتماع المحتوى Context ، وعلم اجتماع المؤلف و القارئ.

وقد اهتم النقد السوسيولوجي في ألمانيا بمجمل الظروف المادية التي تطورت عبرها الأعمال الأدبية ومدى تأثيرها في جمهرة القراء حيث عمل ليفين شوكنج L. Schucking على دراسة جمهور القراء وبحث في أذواقهم.

أما في فرنسا فقد تطرق جويو J. Guyow لقضية القيم التي تقود إلى قضية الفعل في العمل الأدبي، واهتم غولدمان بدراسة بناء العمل الأدبي وتجسيده لفكر الجماعة الاجتماعية بينما أسس جاك لينهـــارت jurt, J.Leenhardt و،Escarpit لإنـــشاء مبحث علم اجتماع القراءة Sociologie De Lecteur et le public حيث كـــان الطرح الأساسي يتناول بالسؤال الكيفية التي يستمر فيها عمل روائـــي إســـباني أو إنجليزي دالا في نص اجتماعي مخالف عبر ترجمته إلى اللغة الفرنسية أو الألمانية ، كما أسسH.R jauss هانس روبرت ياوس الألماني لمقاربـــة جديـــدة " جماليـــة التلقي" اكتشف فيها القارئ المجهول والجمهور المستهلك للعمل الأدبي " فمؤســـسي نظرية جمالية التلقي (ياوس، إيزر) لا ينظرون في النص الأدبي سوى " كن هنـــا " ويتجاهلان مقومات الانتاج الداخلي للنص الذي أنتجه" (5).

<u>سوسيولوجيا الرواية لدى الناقد حميد لحميداني:</u>

1- <u>المؤلفات:</u>

حميد لحمداني روائي و ناقد حداثي من المغرب بدأ النقد في مطلـــع الثمانينـــات. اهـــتم بالسرديات، فأنتج مجموعة من الأبحاث و الدراسات و المؤلفات، نذكر من بينها:

1-من أجل تحليل سوسيو بنائي للرواية 1984.

2-الرواية المغربية ورؤية الواقع: دراسة بنيوية تكوينية 1985.

3-في التنظير والممارسة: دراسات في الرواية المغربية 1986.

4-أسلوبية الرواية: مدخل نظري 1989.

5-سحر الموضوع: دراسة نقدية 1990.

Mokarabat

6-النقد الروائي والإيديولوجيا 1990.

7-بنية النص السردي 1991.

وقد تبنى (المنهج البنيوي التكويني) منذ كتابته الأولى (من أجل تحليل سوسيو بنائي للرواية: رواية المعلم علي نموذجاً) 1984 ثم اعتمده أيضاً في كتابه الثاني (الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي) 1985 حيث أعلن عنوانه الفرعي (دراسة بنيوية تكوينية) وهو في الأصل رسالة جامعية حدد زمانها منذ بداية استقلال المغرب عام 1956 وحتى 1978، وحدّد موضوعها: ثماني عشرة رواية لعشرة روائيين. مهّد فيه لمنهجه باتباعه المنهج السوسيولوجي منذ (بليخانوف) وحتى (غولدمان) مروراً بلوكاش الذي اكتسب المنهج النقدي الجدلي على يديه صورة أكثر عمقاً وانسجاماً، وأقام دعائم سوسيولوجيا الرواية استناداً إلى النظرية الجدلية التي تفسر الفن بأنه تعبير غير مباشر عن الصراعات الاجتماعية القائمة في المجتمع. وجمع بين الإيديولوجي والفني من أجل الوصول إلى تقييم صحيح للإبداع الأدبي(6).

2- <u>سوسيولوجيا الرواية بين العرب و الغرب:</u>

من خلال كتابه "النقد الروائي و الإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي"، يرى الناقد حميد لحميداني أن ما أفرزه النقاد العرب من مؤلفات نقدية روائية تنضوي كلها تحت ثلاثة أنماط من الاتجاه الجتماعي و هي(7):

أ- نمط له طابع سياسي و إيديولوجي مباشر، و النقاد فيه يعلنون منذ بداية العملية النقدية مواقفهم المحددة و بشكل نهائي، و هذه المواقف ليس لها علاقة بنظرية الرواية، و إنما بالتاريخ و الصراع الاجتماعي، و الرواية عندهم شكل إيديولوجي و ليست عملا فنيا.

ب. نمط يتخذ طابع التحليل الموضوعي،و أصحابه قد تخلصوا من المنطلق الإيديولوجي و السياسي، مع عدم تخليهم عن مبادئ التحليل الأدبي الناتجة اعتمادا على النظرية المادية التاريخية، مستبدلين الخيار الاشتراكي بالاختيار الإنساني، فقد تعاملوا مع الرواية كفن يعكس الواقع الإجتماعي.

Mokarabat

ج. نمط ينطلق من مفهوم الؤية، و المفاهيم القريبة منه كالإيديولوجيا و موقف الكاتب، و فهموا الرؤية كتصور فردي، و ربطوا بين الرؤية الذاتية و عناصر الثقافة المحيطة بالروائي(8). كما لم يتخلوا عن النزعة الإنسانية، و تجنبوا اتخاذ موقف إيديولوجي او سياسي محدد. و لقد اهتم أصحاب هذا النمط الثالث بالجانب الجمالي في الرواية، و العلاقة الحميمة بين الشكل و المضمون، مشيرين إلى البنيوية التكوينية، كما قدمها "لوكاتش" و "غولدمان".

إن هذه الأنماط العربية الثلاثة تقارب الخطوات التي قطعها و سار عليها النقد السوسيولوجي الغربي، و لكنَّ قيمة النقد الروائي العربي ليست نفسها قيمة النقد الروائي الغربي، فليس من الضروري أن يكون النقاد العرب قد "تمثلوا بعمق جل النظريات السوسيولوجية في الأدب، فلقد لاحظنا أن النقد السياسي و الإيديولوجي المباشر كان يكتفي أصحابه بالإعلان عن موقفهم المبدئي، دون تقديم تحليل دقيق للواقع الاجتماعي أو الفكري يسند آراءهم و يدعمها"(9) .

إن المنظرين للنقد الاجتماعي الروائي عربيا- كما يرى لحميداني- اهتموا بالرؤية وسيطا بين الفن الروائي و الواقع، دون ان يتمثلوا كثيرا من المصطلحات التي نشأت في حقل البنيوية التكوينية، و يعود ذلك إلى عدم اتصالهم إلا بالنقد الإنكلوسكسوني الذي و إن كان غنيا، فقد أثر على التمييز بين المناهج النقدية.

و كاستنتاج خلص إليه لحميداني(10)، يرى أن النقد الروائي السوسيولوجي العربي، لم يستوعب المراحل التي قطعها هذا المنهج في الغرب، لأن تأثير سوسيولوجيا النص لا توجد له إلا ملامح عفوية لا علاقة مباشرة لها بالرصيد النظري الذي قدمه باختين و بيير زيما و ميشال زرافا..

Mokarabat

الإحالات:

*:عبد النور إدريس، النقد السوسيولوجي للرواية، الحوار المتمدن.

1- جورج لوكا تش " دراسات في الواقعية" ترجمة نايف بلوز، دار الطليعة ،دمشق، الطبعة الثانية ، سنة :1972، ص: 42.

2- بيير زيما " النقد الاجتماعي نحو علم اجتماع للنص الأدبي " ترجمة عايدة لطفي مراجعة د.أمينة رشيد ود.سيد بحراوي،دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع،القاهرة الطبعة الأولى 1991، ص: 123.

3 – لوسيان غولدمان" مقدمات في سوسيولوجية الرواية " ترجمة بدر الدين عرودكي ،دار الحوار للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى 1993، ص: 24.

4- " نظريات القراءة من البنيوية الى جمالية التلقي " ريمون ماهيو، القراءة السوسيو- نقدية، ترجمة د.[illegible]ن بوعلي، دار الحوار للنشر والتوزيع سورية ،الطبعة الأولى 2003، الصفحة63.

5- Pierre v.zima,Manuel de sociocritique ,l'harmattan ,Picard édition 1985,p :202 .2000,France, première édition

6- حميد لحميداني و الرواية المغربية، من أجل تحليل سوسيو بنائي للرواية، النقد الروائي و الإيديولوجيا.

7- حميد لحميداني، النقد الروائي و السوسيولوجيا: من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، بيروت، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1990، ص 117-118.

8- نفس المصدر، ص 118.

9- نفس المصدر، ص 119.

10- نفس المصدر، ص 119.

Mokarabat